

## الأزهر الشريف ودوره اثناء احتلال الحملة الفرنسية لمصر 1798م-1801م :

### الأحداث والمواقف والدروس

د. الناصر عبد الله أبوكروق(\*)

#### مستخلص:

هذا البحث ، كما يشير عنوانه ، يتناول أحداث الحملة الفرنسية على مصر 1798-1801م وموقف الأزهر الشريف حيالها ثم يوضح النتائج والاستنتاجات والدروس التي خلص إليها الباحث وبهذا فإن البحث يتضمن أحداثا متسارعة وصاخبة يأخذ بعضها برقاب بعض في فترة لا تتعدى ثلاث السنوات، وهي فترة قصيرة جدا في عمر الشعوب والزمن، ولكنها كانت عظيمة الأثر في تاريخ مصر والشرق الإسلامي عامة ويتضح لنا بجلاء أن تاريخ الإسلام له تفرد مختلف عن بقية تاريخ العالم فما دامت جذوة الدين الإسلامي مشتعلة فإن أمة الإسلام لا تنكسر ولا تضع حضارتها فإن كانت السلطة الزمنية الحاكمة قد انتهت وتلاشت فإن سلطة العلم والعلماء التي يمثلها علماء الأزهر في هذا البحث كانت قادرة على أن تقود الأمة الإسلامية في مصر حتى بدون سلاح أو جيش يذكر، وقد استطاع علماء الأزهر سواء كان الجناح المتطرف أو الجناح المعتدل أن يقودوا مصر إلى بر الأمان من تلك الهجمة الحضارية والعسكرية الشرسة التي قام بها الفرنسيون والمتمثلة في الحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت واحتلت مصر مدة ثلاث سنوات عجاف، ولكن أخيرا خرجت مصر سالمة بعد أن استخلصت دروسا عظيمة

\* جامعة إفريقيا العالمية ، كلية الآداب ، أستاذ مشارك

حيث فتحت الحملة أذهان المصريين للحضارة المادية الحديثة وعرف علماء الأزهر أنه لا بد من استصحاب التقدم المادي العلمي الأوربي مع القوة الروحية العلمية الإسلامية التي يمثلونها فقد أظهرت الحملة علماء الأزهر بأنهم المدافعون الطبيعيون عن مصر وأزهرها وعقيدتها وديارها حتى وإن فشلت السلطة الحاكمة في ذلك .

### Abstract

This article , deals with the incidents of the French expedition to Egypt 1798-1801 and the Role of Azahar during that period.

That period was of course very short in Time , but was very important in its results and consequences. The University & Mosque of Azahar played most important role in keeping in tact , the state and Islamic religion in Egypt and that proved ultimately the vivid role of Islamic "Ulma" in preserving Islam & its institutions . even without an army.

The French expedition showed the Egyptians , specially The *Ulma* of Azhar that they should pay attention to the European modern science in order to face the aggression of Europe against the Islamic word in general & Egypt in particular

### تقديم :

الأزهر الشريف جامع وجامعة أسسه الفاطميون في مصر وسمي الأزهر نسبة لفاطمة الزهراء رضي الله عنها وهذا هو الراجح حيث إنه ثبت في وجدان المسلمين بأن اسمه نسبة للزهراء رضي الله عنها ولذلك يطلق عليه أيضا اسم الأزهر الشريف ، وقد قرّر ذلك في أذهان العلماء والصلحاء ، كما في أذهان العامة حيث يقول الشيخ صالح (1) أحد علماء الأزهر في العصر الحديث .

|                       |                          |
|-----------------------|--------------------------|
| فيا زهراء أزهركم منير | ومن بركات والدكم تشعب    |
| وعم العالمين سنا ضياه | فكل المسلمين إليه تطلب   |
| سألت الله يكلؤه بنصر  | ومن يبغي له الإذلال ينكب |

ومع ذلك فقد قيل إنه سمي الأزهر نسبة للقمر<sup>(2)</sup> لأن الأزهر اسم من أسماء القمر وهذا قول ضعيف لا يؤخذ به.

أسس الأزهر القائد جوهر الصقلي بأمر من الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في 10 رمضان 359هـ / 970م واستغرق بناؤه نحو عامين وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة في 7 رمضان 360هـ / 971/6/25م وظل قاصرا على الصلاة والدعاية للمذهب الشيعي الذي يؤمن به الفاطميون وهمشت مساجد السنة الأخرى كمسجد عمرو ومسجد بن طولون وفي عهد العزيز بالله أصبح الأزهر أيضا جامعة وذلك بفضل مجهودات وزير العزيز يعقوب<sup>(3)</sup> بن كلس الذي قيل إنه كان يهوديا اعتنق الإسلام وهو الذي رتب في الجامع الأزهر الدراسة والتدريس وأسس قاعات الدراسة للطلاب من كل مكان وجعل لهم إعانات شهرية كما جعل رواتب للفقهاء والعلماء وكان المنهج الدراسي كله على المذهب الشيعي .

تعتبر جامعة الأزهر أقدم جامعة موجودة الآن<sup>(4)</sup> في العالم كله وليس العالم الإسلامي فحسب بعد أن اندثرت جامعات الزيتونة والقرويين في المغرب حيث إن جامعات أكسفورد وباريس أقدم الجامعات الأوربية أنشئت في القرن الثالث عشر بينما أنشئت جامعة الأزهر في القرن العاشر الميلادي، وقد تدهور شأن الأزهر في عهد الأيوبيين الذين خلفوا الفاطميين إذ إنهم كانوا على السنة وأرادوا أن يطمسوا كل نشاطات وآثار الفاطميين في مصر ومن بينها بالطبع الأزهر ولكن رجعت للأزهر مكانته مرة أخرى في عهد المماليك الذين كانوا على السنة مثل الأيوبيين ولكن الظاهر بيبرس أرجع للأزهر مكانته العلمية الرفيعة حيث أصبح قبلة الطلاب في كل العالم الإسلامي خاصة بعد الغزو المغولي وتدهور مساجد وجامعات العالم الإسلامي شرقا وغربا ولكن الملاحظ أن منصب شيخ الأزهر لم يظهر إلا في العهد<sup>(5)</sup> العثماني وكانت له مكانته الدينية والسياسية العظيمة لدى الشعب

والسلطة الحاكمة على السواء وقد تخرج منه علماء أجلاء عاملون بدينهم سارت بذكرهم الركبان وتشد لهم الركائب ويلجأ لهم الناس في أمور الدين والدنيا وطبقت شهرتهم الآفاق وتولوا المشيخة فمن هؤلاء سلطان العلماء العز بن عبد السلام (6) 660هـ-1162م م وابن حجر العسقلاني 773-852هـ/1371-1449م ، إمام الحفاظ في زمانه ثم عبد الرحمن الجبرتي صاحب كتاب (عجائب الآثار في التراجم والأخبار).

وكذلك كان يطلق على من يتولى مشيخة الأزهر لقب شيخ الإسلام (7) وذلك لتمكنه من فقه الإسلام وعلومه وهذا اللقب يمنحه فقط خليفة المسلمين ويتم اختياره باتفاق جميع الشيوخ والعلماء ويخلع عليه السلطان الحلة إعلانا بتنصيبه شيخا للأزهر وشيخا للقطر كله .

ظل الأزهر الشريف منارة علم ودين حيث ثبت فيه فقه المذاهب الأربعة التي ظلت تدرس فيه بالسند المتصل إلى إمام المذهب المعين حنفيا كان أو مالكيا أو شافعيًا أو حنبليًا وأهل المذاهب دون شك هم أهل الاستنباط الذين ورد وَاَلَوْ رَكُّوْهُمْ فِي الرَّايِسَةِ "وَلِأَيِّ أُمَّةٍ مَلِغٌ لِّهِنَّ هُ الَّذِيْنَ يَسْتَنْبِطُوْنَهُ مِنْهُمْ" "إذ إنهم أهل العلم وأولو العلم المسنود رأسًا للنبي صلى الله عليه وسلم بالسند المتصل ، اجتمع عليهم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها وأما أولو الأمر الحاكمون ففي قول الله تعالى ذِينَ آمَنُوا وَوَلُوا أَلْبَابَهُ وَأَطَاعُوا الرِّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ . " ويفهم من قوله تعالى (منكم) (8) أن الحاكم قد يكون مسلما فتجب طاعته وقد يكون كافرا فلا تجب طاعته .

من المهم كذلك أن أثبت هنا أن المنهجية العلمية التي اتبعتها الأزهر الشريف منذ أن أصبح يحمل لواء السنة كانت سببا في ديمومته وثباته وبقائه كقلعة تحافظ على الإسلام وذلك لإتباعه المنهج النبوي في التعليم والتدريس وهو

المنهج الذي يعتمد على تلقي التلميذ مباشرة<sup>(9)</sup>. من شيخ الحلقة داخل المسجد كما يتلقى عنه الإجازة وقد ظلت هذه الطريقة تنتقل من جيل لجيل بنفس الصورة التي بدأت في المسجد النبوي الشريف عندما كان المصطفى صلى الله عليه وسلم يدرس الصحابة في حلقة العلم وهم يتحلقون حوله دائرة وراء دائرة ثم انتقلت هذه الطريقة المباشرة إلى مساجد العالم الإسلامي في العراق والشام في عهد التابعين وتابعي التابعين أمثال الحسن البصري وسعيد بن المسيب وعطاء بن رباح وطاووس والأئمة الأربعة وغيرهم ثم استقرت الطريقة في الأزهر الشريف ، ولأن الأزهر تبع هذه الطريقة فقد ظل محافظا على وجوده ولذلك يمكن القول بأنه لولا الأزهر لضاع التراث الإسلامي بعد أن تبيد أكثره في المحن التي واجهت المسلمين كهجوم المغول والتتار وضياع الأندلس واندثار معاهد العلم العظيمة شرقا وغربا .

كان للأزهر بجانب مهمته الأساسية وهي صلاة الجمعة والجماعة والعلم والتعلم وإلقاء الخطب والمواعظ والدروس وتخريج طلاب العلم في مصر وخارجها من جميع أركان العالم الإسلامي ، كانت له مهمة نضالية عظيمة أطرت دوره السياسي المرموق فمن فوق منبره علت صيحة الجهاد لمحاربة الصليبيين والتتار وأضفى جلال العلم هيبته ووقارا على علمائه الأجلاء حتى هابهم الملوك والحكام ولعل شوقي كان صادقا فيما يقول حين وصفهم:

كانوا أجل من الملوك جلالة وأعز سلطانا وأفخم منظرا

ولعل مواقف العز بن عبد السلام أيام المماليك تدل دلالة واضحة على الدور السياسي والنضالي للأزهر وكذلك موقف الشيخ عبد الله الشرقاوي<sup>(10)</sup>. شيخ الأزهر قبيل الحملة الفرنسية في آخر أيام المماليك يوضح بجلاء اضطلاع الأزهر بالدور السياسي النضالي البارز وذلك حين جمع المشايخ وأمر بإغلاق الأزهر

وأمر الناس بإغلاق حوانيتهم في حركة أشبه بالعصيان المدني أجبرت طاغيتي المماليك الألفي ومراد بك على التراجع أمام غضبة شيخ الأزهر .

هذا عن الأزهر أما الحملة الفرنسية على مصر فلا بد من نبذة تقديمية مختصرة عن فرنسا نفسها أولاً ثم أتناول الحملة الفرنسية في مصر ومواقف الأزهر منها.

فرنسا من أهم دول غرب أوروبا وهي من أهمها وأشهرها وكانت تعرف قديماً ببلاد الفال في العهد الروماني، وفي القرون الوسطى سيطرت عليها مملكة الفرنجة التي تزعمها شارلس العظيم أو "شارلمان" والذي كان معروفاً في العالم الإسلامي وعلاقته مع هارون الرشيد سجلها التاريخ وفي العصور الحديثة دخلت إليها النهضة الأوروبية الحديثة من إيطاليا حيث عمت أوروبا ومن بينها فرنسا بعد أن تأثرت إيطاليا أولاً بالحضارة الإسلامية قبل غيرها من أمم أوروبا ولكن فرنسا علا كعبها وازدهرت فيها النهضة وظهر فيها مفكرون قادوا الحركة الفكرية التي تعرف باسم التنوير أو الاستنارة وقد قاد هذه الحركة الفيلسوف الفرنسي "ديكارت" وتلاميذه وقد هزت حركة التنوير "enlightment" المجتمع الأوربي الراكد في القرون الوسطى حين كانت تسيطر الكنيسة الكاثوليكية وتحجر أي نوع من التفكير إلا ما تسمح به كما ساد نظام الإقطاع الذي كبل الأوربيين بقيوده الاجتماعية والاقتصادية الرهيبة كما وقفت الكنيسة بأسلحتها المخيفة مثل "قانون التحريم" سدا منيعاً أمام أي تفكير حر فأحرقت من أحرقت وحرمت من رحمة الله علي حد زعمها ، من حرمت فجاءت فلسفة ديكارت وتلاميذه وهزت ثوابت القرون الوسطى من الجذور وتحركت المياه الراكدة بل تعدى فلاسفة الثورة الفرنسية إلى تفكير أبعد تطرفاً فكانت أفكار مونتسكيو وفولتير وخاصة جان جاك روسو كالمطارق على رأس النظام القديم في فرنسا وبجانب أسباب أخرى انفجر الوضع واشتعلت الثورة

الفرنسية وكانت شرارتها سقوط الباستيل في 14 يوليو 1789م ومن ثم اشتعلت النار في الهشيم لا تبقي ولا تذر فغيرت المجتمع والسياسة والاقتصاد والفكر وحتى الدين الذي يبدو أن بعض من قادوا الثورة كانوا ضده علي خط مستقيم حتى قال قائلهم " أشنقوا آخر إقطاعي بامعاء آخر قسيس " (11).

غير أن إرهاب الثورة الفرنسية المتمثل في "روسبير" وغيره ثم تهديد الجماهير لحكومة الإدارة دفع رجال الإدارة للبحث عن مخرج من تلك الدوامة التي دارت مع "المقصلة" التي كانت تهدد بقطع رأس كل من له ذرة من تعقل أو رشد ، وبدا كأن ليل الثورة البهيم لا نهاية له ولكن أخيرا وجدت حكومة الإدارة ضالتها في ضابط قصير ضئيل الجسم أتى من جزيرة كورسيكا فأوكلت له مهمة حفظ الأمن والنظام وحماية الحكومة وبصورة دراماتيكية نصب ذلك الضابط المدافع فوق قصر " التوليري " مقر الحكومة ، فلما جاءت الجماهير الهائجة كعادتها لترهب الحكومة والنواب لم يتردد في إطلاق النار من مدافعه في " المليون " فهربت الجماهير مذعورة ولم تعد من يومها وعرفت فرنسا من هو حاكمها في المستقبل وكان ذلك الضابط هو " نابليون بونبارت " (12).

قادت الظروف السياسية والدولية في أوروبا فرنسا لتغزو مصر لتحقيق مطامع وأهداف حيوية لها كما قادت ملابسات الوضع في فرنسا حكومة الإدارة لتوكل مهمة قيادة الحملة الفرنسية الذاهبة لمصر " لنابليون بونبارت " .

### وجاء الفرنسيون

إذن ولأهداف وأجندة معينة أرسلت فرنسا حملة ضخمة لمصر قوامها 36000 جندي مزودة بأحسن أسلحة العصر يتبعها جيش من العلماء قوامه 146 (13) عالما متخصصون في شتى أفرع علوم أوروبا ما بعد النهضة، مما يدل علي أن فرنسا تريد إرسال رسالة حضارية بجانب أجندها الخفية الأخرى وقد كان

واضحاً أن أهم أهداف فرنسا هو أولاً فرنسا البحر المتوسط وخاصة شرقه وإبعاد الإنجليز الأعداء التقليديين ، منه وكذلك ضرب الإمبراطورية العجوز (بريطانيا) ، والتي كان يسميها نابليون " أمة أصحاب الحوانيت " في مقتل وذلك باحتلال مصر وفصل إنجلترا عن مصالحتها في الهند والشرق الأقصى وأعلى البحار كما أن فرنسا كانت تدرك أن برزخ السويس والبحر الأحمر يمثلان أهم ممرات العالم البحرية فأرادت السيطرة عليها ، أيضا يمكن أن يكون من أجدتها وأسبابها الخفية محاولة التصير في مصر خاصة على المذهب الكاثوليكي ولكن هذا الهدف يبدو ضعيفا في حالة الحملة الفرنسية بالذات لأن فرنسا في تلك الأيام ، أي خلال الثورة الفرنسية وما بعدها ، ضعف اهتمامها بالدين بشكل عام بل إن الثورة الفرنسية كرست مبادئ العلمانية<sup>(14)</sup> Secularism والقومية ولم تهتم بالدين ويبدو أن الفكر اليهودي كان يسيطر على مجريات الثورة الفرنسية منذ البداية حتى أن بعض قادتها مثل الكاونت " ميرايو " يظن أنه يهودي الأصل وله مآرب يهودية خاصة ، كما أن نابليون نفسه وصفته المراجع بأنه لا يهتم<sup>(15)</sup> بالدين وذلك فإن مسألة التصير والدين كانت أقل أثرا في ذهن نابليون بل كان رائده الأول هو نشر مبادئ الثورة الفرنسية وتحضير العالم الشرقي<sup>(16)</sup> الهمجى كما يظن الأوروبيون عامة إذ كان يعتقد هو ومن معه في الحملة الفرنسية أن لهم رسالة حضارية لإرساء مبادئ الحرية والعدالة والمساواة الخ: التي بشرت بها الثورة الفرنسية على حد زعمهم، في بقية العالم خاصة الشرقى الهمجى غير المتحضر ، ولكن مبدأ التصير قوي فيما بعد نابليون في فرنسا ورجعت فرنسا لكاثوليكيته المتعصبة في عهد لويس التقي وعند احتلال الجزائر<sup>(17)</sup> 1830 أما بالنسبة لمصر أيام الحملة الفرنسية فإن ذلك الهدف كان ثانويا وكان نابليون ومن معه يخططون للحكم في مصر من واقع عقولهم وتفكيرهم أكثر من ميولهم الدينية وهذا ما اعتبره الشرقاوي



(18) رحمة من الله للمصريين كما يتضح فيما بعد، ولكن هذا لا ينفي أن العداة الصليبي للإسلام اختفى من أذهان الفرنسيين ومهما كان تفكيرهم فإنهم لا يمكن أن يتخلوا عن صليبيهم وحقدهم على الإسلام ولكن ذلك العداة تتفاوت درجاته حسب الظروف ولكنه يتهيأ أبداً ، وهذا ما قرأ في أذهان المصريين والمسلمين في ذلك الزمن وقد أثبتته الأحداث فيما بعد .

ليس من أغراض الباحث التأريخ للحملة الفرنسية في مصر ولا سرد الأحداث المتلاحقة التي حفلت بها تلك السنوات الزاخرة بالمواقف والأحداث والتقلبات السياسية والاقتصادية وهي أحداث جعلت مصر تغلي كالمرجل ، ولكن نقفز فوق الأحداث لنخلص لمواقف الأزهر ودوره أثناء وجود الحملة الفرنسية في مصر ، فقط أذكر أن الحملة استطاعت في فترة وجيزة أن تستولي على مصر بكاملها بعد أن هزمت محمد كريم في الإسكندرية، وهزمت المماليك السلطة الحاكمة آنذاك ، في "سبراخيت" ثم واجهتهم في المعركة الفاصلة في أم بابة ( معركة الأهرامات ) في أواخر يوليو 1798م وهزمتهم ودخلت القاهرة منتصرة بعد أن وقف نابليون يشجع جيشه عند الهرم قائلاً لهم .. " أن أربعين قرناً من التاريخ تنظر إليكم" (19) الآن "ومما لاشك فيه أن مهمة الحملة الفرنسية كانت سهلة نسبياً لتطور الآلة الحربية الفرنسية والتنظيم الرائع للجيش الفرنسي والمقدرة القيادية الفريدة الفذة التي كان يتمتع بها نابليون ، الذي كان ينظر إليه جنوده بمحبة تقرب للقداسة ، فكان كأنما خلق زعيماً وليقود الجيوش ، إضافة لغباء المماليك الذين لم يستعدوا للأمر وظنوا أنهم لن يهزموا كما أنهم كانوا منقسمين فيما بينهم مراد في الضفة الأخرى علي النيل من الجيزة، والبرديسي في الضفة المقابلة في وسط القاهرة وبدل الاتحاد ضد العدو كان كل منهما يشمت في الآخر ، كما أن جمهرة المصريين لم تشترك معهم المشاركة الواضحة في مواجهة نابليون ولم يظهر دورهم

إلا بعد أن دخل نابليون القاهرة وبدأت ثلاث السنوات العجاف التي وصفها الجبرتي مؤرخ الحملة الفرنسية على مصر وصفا دقيقا ! وقد كان شاهد عيان للأحداث المروعة التي كانت تحدث تحت بصره فوصفها وصفا دقيقا على مدار اليوم يوما بيوم وأسبوعا بأسبوع وذلك في كتابه الموسوعة (عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، وهو سفر ضخيم طباعته ولغته تصعب علي المعاصرين وقد حاول محمد منديل تبسيطه للباحثين والقراء) فكان مما قاله ذاكرة أولى سنوات الحملة " وهي أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب وما كان ريك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون" (20).

#### موقف الأزهر :

بدأ نابليون منذ أن وطأت أقدامه أرض مصر ، وبعد أن سيطر على الإسكندرية برسب المنشورات والبيانات لأهل مصر وللعلماء والمشايخ ، ولكنه بدأ بالتمويه والمداهنة والكذب وظنَّ أن حيلته ستطلي على أهل مصر وعلمائها، وما درى أن بمصر مؤسسة علمية ربما تكون الأوحد في عالم المسلمين ، من حيث فهم علمائها للدين ومنهم العاملون به تماما فكان مما ذكر في منشوراته .. " أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما جئت إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفتريين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حركم من الظالمين وإني أكثر من الممالك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم ... ثم يستطرد " أيها المشايخ قولوا لأمتكم إن فرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون .. (21). وزيادة في التمويه والكياسة أعلن حبه للشعب المصري وأنه جاء لينقذه من

بطش المماليك والعثمانية وأنه يحب الإسلام ويحترم شريعته وأردف القول بالعمل فاحتفل بالمولد النبوي<sup>(22)</sup> ثم أنشأ الديوان من كبار علماء الأزهر الشريف، وقد انتخب علماء الأزهر من بينهم عشرة بالاقتراع السري وجعل على رأسهم شيخ الأزهر عبد الله الشرقاوي وذلك ليؤهم الناس أن الديوان هو حكومتهم بينما السلطة الحقيقية في يده .

لم يندخ علماء الأزهر ولا حتى عامة الشعب المصري بتمويهات نابليون وسياسته الماكرة ، خاصة أنه بدأت تظهر له ميول تجاه الأقباط ومحاوله الاستعانة بهم حتى يؤمن موقفه تجاه الغالبية المسلمة وذلك حين رتب ديوانا آخر أسماه "محكمة القضايا" مهمته الأولى جمع الضرائب، وتثبيت حكم الفرنسيين وجعل على رأسه ملطي القبطي<sup>(23)</sup>، وذلك ما أن فاقت القاهرة من صدمة هزيمة المماليك، حتى قامت بثورتها الأولى في 1798/10/21م وكان الأزهر هو مركز المقاومة الأولى إذ إن الشعب المصري لم يجد بالضرورة من يلجأ إليه إلا الأزهر وعلماءه، بعد أن فر المماليك وتركوا الساحة للشعب المصري الأعزل يقوده العلماء الأزهريون، فقاموا بتلك الثورة العارمة بعد أن استعدوا بجمع الأسلحة وكسوها في أروقة الأزهر وزواياه<sup>(24)</sup> وبعد أن وجدوا الدافع القوي للثورة بسبب تصرفات جنود نابليون وفرضه للضرائب الباهظة على الحوانيت ومعاصر الزيوت والحمامات والخانات وبعد أن وجدوا التأييد من السلطان العثماني الذي أصدر<sup>(25)</sup> فرمانا (مرسوما) يحرض فيه المسلمين على القيام بالثورة ضد الفرنسيين الكفرة وبعد أن أرسل زعيما المماليك مراد وإبراهيم الرسل لزعماء الأزهر للقيام بالثورة .

وبعد أن استوتقوا من قوتهم صعد المؤذنون ينادون بالجهاد ، من على مآذن ومنازل المساجد بل إن في مذكرات نابليون ما يثبت أن لجنة الأزهر كانت تسمى لجنة الثورة وكان يقودها الشيخ محمد السادات بينما كان علماء الأزهر يطوفون

بالشوارع يحرضون الناس على الجهاد والثورة في وجه الفرنسيين الكفرة ، وقد قدر عدد من تجمع في الأزهر تحت قيادة علمائه بـ 15 ألفاً بدؤوا يواجهون الفرنسيين في تحد وبسالة فائقة حتى أنهم قابلوا النار بالنار وقتلوا أحد قادة الفرنسيين وهو الجنرال ديوي (26) عندما بدأ بإطلاق النار ثم اشتعلت الثورة كالنار في الهشيم . وكانت الدعوة للثورة ضد الفرنسيين كما ذكر " دي لاجكويكر " (27) أحد ضباط الحملة الفرنسية تختلط جهارا بأذان المؤذنين خمس مرات في اليوم مع كل صلاة ويضيف المؤرخ الإنجليزي "كرستوفر فيرهيرولد" أن الأزهريين هم قادة الوطنية والفداء وتزعم الثورة بوم نشوبها عالم أزهرى شاب هو الشيخ " بدر القدسي " (28) وقد نزل إلي الشارع وخطب في جمع غفير من الناس داعيا كل مؤمن بالله أن يذهب للجامع الأزهر .

في اليوم الثاني للثورة أصبح الأزهر مقر القيادة يعج بالثائرين ووضح أنه قلب الثورة النابض أمدھا بالقيادة بواسطة علمائه الأجلء وحتى شيخ زاوية العميان في الأزهر "سليمان الحوسقي" وقف يخطب في الناس ويذكرهم بأمجاد السلف الصالح وبموافق الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وقد نقل عنه أنه وقف في انفعال وقوة وأخذ يصرخ والدموع تنحدر علي خديه هاتفا (29) " والله ما قام عمود هذا الدين إلا بالجهاد ولا أزهرت شجرة الإسلام إلا بدماء الشهداء ، ولقد خاض رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب حتى شج وجهه وكسرت ربايعته وفي سبيل الله استشهد سادتنا من الصحابة والتابعين فلعنة الله علينا إن كنا من القاعدين بعد اليوم" ، وليس ذلك فحسب بل إن الآلاف زحفت من الأقاليم لنصرة الإسلام والمسلمين ونصرة الوطن هدفها الأزهر نقطة التجمع ومقر القيادة ، ورأس الرمح في الجهاد ضد الفرنسيين ولم ترهبهم المدافع الثقيلة التي نصبها الفرنسيون حول الأزهر ومن أعلى منارات المساجد ولا حتى إصرار القائد الفرنسي الجديد

(بون) الذي خلف ديوي باتخاذ أقصى الوسائل صرامة ضد الأزهر ، وقيادته بل إنهم فاجئوا الفرنسيين بزحفهم نحو الأزكية، مقر القيادة الفرنسية ثم تسلقوا منارات مسجد قريب (مسجد كتخدا) وأمطروا الفرنسيين بوابل من الرصاص، فرد الفرنسيون بنير ان أكثر كثافة بعد أن استوعبوا المفاجأة المذهلة فتجمعوا حول المسجد بمدافعهم وحطموه تحطيمًا كاملاً بعد أن سقط جميع من فيه من الثوار<sup>(30)</sup> وحتى النساء اللاتي كنَّ يمددنهم بالذخيرة والسلاح المعبأ سقطن قتلى ثم بعدها اتجهت جيوش نابليون نحو الأزهر لتنتقم أقصى انتقام وتصب جام غضبها على تلك البقعة المجاهدة لتقضي على من فيها وعلى ما فيها ، في صورة بربرية تنبئ عن روح إجرامية كامنة تحت مظهرهم الحضاري الزائف فتكشفوا عن شياطين وأبالسة ووحوش كاسرة في ثياب بشر .

كان ما صوره الجبرتي من همجية الفرنسيين عند هجومهم على الأزهر صورة تشيب من هولها الولدان ، فكان مما ذكر: " يعد هجعة الليل دخل الإفرنج المدينة كالسيل ومروا في الأزقة والشوارع ولا يوجد لهم ممانع .. كأنهم الشياطين أو جند إبليس .. ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وفيهم المشاة كالوعول، وتوقفوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا في الأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشمو خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع ، والمخبات بالدواليب والخزانات ، ودشنوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيهم وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه بها عروه ومن ثيابه وأخرجوه " <sup>(31)</sup>.

صورة من الهجمية والبربرية تصدم الشعور والإحساس حتى أن بعض الكتاب الحديثين لم يستطيعوا نقلها كما هي لبشاعتها فبعضهم لم يكتب تعابير

مثل وتقوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب ، كما هي ولكن كان ينبغي أن يكتبوها حتى تظهر الحقيقة عارية وقد بلغت البربرية بالفرنسيين مبلغاً أنهم يعرون المشايخ من ثيابهم داخل الأزهر وعلى كل فإن ما فعله الفرنسيون في الأزهر ينبئ عن الأحقاد الصليبية الكامنة في نفوسهم التي تظهر في لحظات الحقيقة مهما حاولوا إخفاءها كما أن مدينتهم وحضارتهم الزائفة تظهر حقيقتها الهمجية في مثل تلك اللحظات وراء قناع المظهر المتحضر الزائف .

من ناحية أخرى فإن علماء الأزهر وقفوا حيال هذه النكبة موقفاً في مظهره منقسم ولكن في جوهره متحد فقد اختلفوا في أسلوب المواجهة ولكنهم متحدون في عدائهم للفرنسيين وفي اعتقادهم بأن الفرنسيين عدو غاشم ومحتل ويبغي الشر ببلدهم وعقيدتهم ولكنهم انقسموا في أسلوب وطريقة المقاومة لهذا العدو الذي دهمهم في دارهم ويهدد باقتلاع هويتهم من الجذور .

القسم الأول اختار أسلوب المواجهة المباشرة مهما كانت التضحيات لأن الفرنسيين كفار ودخلوا ديار الإسلام فلا بد من الجهاد ضدهم، وهذا القسم كان يقوده الشيخ محمد السادات والشيخ عمر مكرم<sup>(32)</sup> وغيرهم من شباب الأزهر فهؤلاء رفضوا أي نوع من التعاون مع الفرنسيين بل اختاروا العدا والمواجهة المباشرة خاصة أن الفرنسيين أظهروا صليبيتهم بصورة واضحة في هجومهم على الأزهر بل وما لقوا نصارى مصر من شوام وأروام الذين ذكر الجبرتي أنهم (..) اغتتموا الفرصة في المسلمين وأظهروا ما هو بقلوبهم مكين (..) (33) بل إن النصارى في مصر من أقباط وغيرهم بدأوا يعملون كجنود مع الجيش الفرنسي (34) المحتل نكاية بالمسلمين وتسلباً عليهم ، وأقسى من ذلك علي نفوس المسلمين من المصريين وكما ذكر الجبرتي (35) .. " ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود ومشيهم الخيلاء ومجاهرتهم بفاحش القول واستذلالهم للمسلمين " .

ولم يكتف الفرنسيون ومن والاهم بذلك بل إن نابليون ومن معه أدخلوا أشياء غريبة علي أخلاقيات الشعب المصري المحافظ ، حيث أدخلوا سفور النساء وشجعوا انحلال الأخلاق باستقدامهم واستخدامهم الفرنسيات الراقصات ومعهم أرباب الملاهي والمجون ، فالجبرتي مرة أخرى يذكر<sup>(36)</sup> " .. لما وصل ساري عسكر الفرنسية (يقصد نابليون) إلى داره بالأزكية تجمع هناك أرباب الملاهي والبهاالوين وطوائف الملاعبين والحواة والقرادين والنساء الراقصات والخلاييص .. " ومما زاد في حنق المسلمين المصريين أكثر حتى وصل بهم الأمر لمنتهاه ما رأوه بأعينهم كيف أن الفرنسيين يصبون حقدهم الدفين علي الإسلام في شخص علمائه الأجلاء من مشايخ الأزهر فبعد ثورة القاهرة قبضوا على كثير من العلماء قدرتهم بعض<sup>(37)</sup>، المصادر بـ 80 وقتلتهم دون شفقة بل إنها قبضت على بعض كبار المشايخ ومن بينهم سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان، وهو رجل أعمى فلم يرحموا عجزه وعماه، ولم يحترموا علمه وقدره، فقتلوه هو ومن معه كالشيخ محمد الشرقاوي والشيخ عبد الوهاب الشعراوي ومن معهم وعروهم<sup>(40)</sup> من ثيابهم وقطعوا رؤوسهم وألقوها من فوق سور القلعة التي كانوا يسجنونهم فيها في صورة يختشي حتى هولاكوه، أن يفعل مثلها، والأدهى والأمر أن الفرنسيين ومن والاهم من المصريين النصارى بدأوا يساومون ويصالحون حرائر النساء<sup>(38)</sup> على أنفسهن .. أضف لكل ذلك ما قاساه عامة الشعب المصري وخاصة المسلمين من النهب والسلب والقتل والتشريد والرحيل أمام الجيوش الغازية والضرائب الباهظة بل زاد الأمر سوءا عندما بدأ الفرنسيون يهدمون كثيرا من المساجد القديمة في القاهرة بحجة بناء سور<sup>(39)</sup> للدفاع عن القاهرة فكل هذا جعل الحملة الفرنسية تظهر وكأنها حملة صليبية أخرى ولكن في ثوب مختلف.

إذا لكل هذا اختار قسم من علماء الأزهر المواجهة المباشرة ولم يظهروا أي نوع من المهادنة أو اللين .

من ناحية أخرى، كان هنالك جانب آخر من علماء الأزهر يقوده شيخ الأزهر الشرقاوي رأى أنه لا بد من أتباع أسلوب المهادنة والسياسة والدبلوماسية والحكمة في مواجهة الفرنسيين رغم اليقين، بأنهم أعداء حقيقيون للدين والوطن وذلك للآتي :

• رأى الشرقاوي ومن معه وهم الغالبية من علماء الأزهر أن الضرورة تستدعي السياسة والدبلوماسية مع الفرنسيين خاصة وكما ذكر في كتابة " تحفة الناظرين" (40) . أن المماليك هزموا وهربوا وأخذوا معهم الأسلحة وآلات الحرب (41) فأصبح الشعب أعزل تقريبا وأنهم كعلماء عليهم حماية المسلمين وحماية الأزهر من ذلك العدو الشرس وأن المقاومة دون سلاح أشبه بالانتحار لأن الله أمر بالاستعداد في قتال العدو في قوله *لَسَجِئْتُهُمْ لَّهُمْ مَّا اسْدُ تَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رَّبِّ اطِرِ الْأَخْيَلِ* " ولم يكن هنالك استعداد واضح والشعب شبه أعزل وبذلك فإن الضرورة وفقه الضرورة تستدعي السياسة والدبلوماسية وطالما أن الحكمة مقدمة حتى على الموعظة الحسنة في قوله *ادْتَعِطِي إِلَيَّ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَدَجَلْتُهُمْ هِبَالِي* " فإنه ليس من الحكمة تعريض المسلمين لسفك الدماء وهتك أعراض النساء وغيرها من المصائب ، بل الواجب حفظ كيان المسلمين وحفظ مساجدهم وفي مقدمتها الجامع الأزهر

• الشرقاوي يعتقد كما جاء في كتابه " تحفة الناظرين " أن نابليون ومن معه في الحملة الفرنسية وخاصة نابليون ، بأنه غير مكترس كثيرا بأمر الدين ويعتقد إضافة لذلك أن هؤلاء فرقة من الكاثوليك تؤمن بعيسى عليه السلام



ولكنها لا تؤمن بالبعث والنشور وأنها تحكم (42) العقل وليس الدين، في تصريف أمور الدنيا ولذلك يرى الشرقاوي أن هذا التفكير هو من رحمة الله على المسلمين في مصر، لأنهم ليسوا بالكاثوليك المتعصبين كما كان الأمر في إسبانيا مثلا بعد خروج المسلمين من الأندلس وما قامت به محاكم التفتيش الرهيبة المعروفة "Spanish Inquisition" ضد بقايا المسلمين خاصة ، فلو كان نابليون وحملته كذلك لتعرضت ببضعة الإسلام في مصر لخطر أكيد ، ولكن نابليون وحملته كانوا يهتمون بنشر حضارتهم العلمانية ومبادئ الثورة الفرنسية أكثر من اهتمامهم بالدين ، ورغم أن نابليون أفرط في الكذب والتمويه حتى يستميل الأزهر والمسلمين عندما ذكر أنه يقرأ القرآن وأنه يحب النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه كان هنالك بعض من الحقيقة في مزاعمه ، فقد ذكر للمصريين في منشوراته أنه وقف ضد الكنيسة الكاثوليكية في بلده وفعلا ثبت ذلك بعد رجوعه من مصر وإصداره القانون المدني للكنيسة "Napoleon Code" والذي جعل رجال الدين أشبه بالموظفين في الدولة ، وأثناء الحملة الفرنسية على شمال إيطاليا وقبل وصوله لمصر اصطدم بالبابا في إيطاليا ، ووقف ضده بل أكثر من ذلك احتل مالطا وهو في طريقه إلى مصر وقضى على "فرسان مالطا" تلك الطائفة الكاثوليكية المتعصبة وخاصة ضد الإسلام ونبى الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد ذكر نابليون ذلك في منشوراته للمصريين حيث يذكر الجبرتي مرة أخرى مقتظفا من إحدى منشورات نابليون (... أيها المشايخ والقضاة والأئمة قولوا لامتكم أن فرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى

- على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردها منها " الكواليرية " فرسان مالطا " الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين) (43)
- رغم أن الزعم فيه شيء من المبالغة إلا أنه ربما كان به بعض الصدق مما جعل الشرقاوي أمام الأزهر يطمئن بعض الشيء لوعود نابليون أو ربما اعتقد أنه ليس بالعدو المتعصب الخطير وأن السياسة والحكمة يمكن أن تستخلص من مثل هذا العدو أكثر من المواجهة التي لا تسندها قوة عسكرية، خاصة وأن البلاد في ورطة ومحنة ولا بد من استخلاص أكبر قدر من السلامة والأمن للبلاد والعباد من ذلك العدو
  - فعلا أثمرت حكمة الشرقاوي وكياسته في تجنب البلاد ويلات أكثر وربما أتاه الله فراسة المؤمن الذي يرى بنور الله وربما رأى ببصيرته النافذة أن هذه السياسة هي الأحسن وأن الفرنسيين لن يطول أمدهم في مصر المحروسة المذكورة في القرآن بالأمن ، وفي الحقيقة فإن نابليون كان فعلا يحترم الأزهر وعلماءه ، وعرف بكياسته أن لعلماء الأزهر أعظم مكانة في نفوس المصريين ، خاصة المسلمين ، ولذلك أشركهم في حكم البلاد منذ أن وطئت قدماء مصر فكون ديوانا للحكم يرأسه الشرقاوي ومعه تسعة من علماء الأزهر فكان الشرقاوي يظن صادقا مع نفسه ، أنه من خلال موقعه كرئيس للديوان يستطيع أن يحكم ويسوس المصريين بحكم أقرب للشرع وقد شجعه احترام نابليون للأزهر، وعلمائه ولذلك طلب من نابليون العدل بين الناس ورفع الظلم وإقامة الشرع<sup>(44)</sup> وإبطال المكوس (الضرائب) وقد نزل نابليون على رغبة الشرقاوي "كتابه"، ولا يدرى إن كان ذلك تكتيكا مؤقتا ، أم كان نابليون صادقا وأغلب الظن أن الأمر لا يعدو أن يكون تكتيكا إذ لا يعقل أن يحكم نابليون بالشرع الإسلامي ، ولكن ربما سمح للشرقاوي والعلماء بذلك في المعاملات الشرعية

بين الناس داخل مصر دون أن يؤثر ذلك في موقفه كحاكم أعلى للبلاد وقد بالغ نابليون في احترام علماء الأزهر حتى أمر بأن تؤدى لهم التحية (45) العسكرية إجلالا واحتراما لهم وحقيقة فقد تأثر نابليون بسلوك علماء الأزهر وجذبتهم هيبتهم ووقارهم وليس ذلك بغريب على علماء الإسلام الأجلاء في كل مكان إذ إن الله يلقي في قلوب من يراهم المهابة والاحترام حتى ولو كانوا كفاراً وقد تكرر هذا في تاريخ الإسلام قديما وحديثا فعلماء الإسلام هم ورثة المصطفى صلى الله عليه وسلم بدليل حديثه المعروف " العلماء ورثة الأنبياء\*\*\* " ..... فالعلماء الواصلون العارفون الذين يجمعون بين الشريعة والحقيقة والذين يرثون من فيض بحر علم المصطفى صلى الله عليه وسلم ويرثون شيئا من شمائله وسلوكه القويم ، من أمثال الشرقاوي ، تترقى أرواحهم وتنور قلوبهم ويمنحهم الله سبحانه وتعالى جلال العلم ومهابته فيروا بنور الله وتجبر مهابتهم الجميع وحتى الكفار علي احترامهم، فلا عجب أن احترم نابليون الإمام الشرقاوي وأمر بأن تؤدى له التحية العسكرية ، وفعلا تكرر إعجاب نابليون بالإسلام وبتعاليم النبي صلى الله عليه وسلم خاصة بعد عودته من الشام مهزوما عند "عكا" حيث أعلن أنه يحب الدين الإسلامي ويعظم النبي صلى الله عليه وسلم ويحترم القرآن ويقرأ منه كل يوم (46) وأنه يريد أن يبني مسجدا (47) عظيما بمصر لا نظير له في الأقطار الأخرى كما أعلن أنه يريد أن يدخل (48) في دين الإسلام .

- لاشك أن أغلب هذا كان تكتيكا من نابليون ليستميل الأزهر إلى صفه ولكن الشرقاوي ومن معه كانوا يدركون الحقيقة المجردة ، ولم يندفعوا بحديث نابليون كثيرا وقد جاءت لحظة الحقيقة عندما طلب نابليون من الشرقاوي وعلماء الأزهر إصدار فتوى يدعون فيها الشعب المصري أن يقدم له الطاعة

والولاء ، فما كان من الشرقاوي إلا أن تصدى له طالبا منه تنفيذ وعده باعتناق الإسلام بل قال له " إذا اعتنقت الإسلام انضوى تحت لوائك مائة ألف جندي عربي وتستطيع أن تفتح بهم المشرق " (49).

• مهما يكن فإن أسلوب المهادنة الذي اتبعه الشرقاوي شجعه عليه أسلوب نابليون الدبلوماسي فأراد أن يستغل هذه الفرصة السانحة وأن يدير الأحكام في الديوان طبقا للشريعة (50) وأن يمنع الظلم والعدوان، ويكف أيدي الفرنسيين عن الشعب حتى تتحرك الخلافة العثمانية ، لإنقاذ الشعب المصري من استعمار الفرنسيين كما أن الشيخ الشرقاوي كان يستغل مكانته في الشفاعة (51) لدى الفرنسيين لدفع الأذى عن زعماء الشعب وذوي المكانة فيهم حتى أدى الأمر إلى اعتقاله بحجة ممالأة الثورة والثوار وسُجن في القلعة ولكن خاف منه الفرنسيون فأطلقوا سراحه .

• الشرقاوي وعلماء الأزهر المعتدلون الصادقون أمثاله، كانوا يرون أنهم مسؤولون عن سلامة الأزهر وعن سلامة المسلمين في مصر وليس ذلك فحسب بل أيضا عن سلامة النسيج الاجتماعي للشعب المصري كافة وذلك بالحفاظ على علاقات المواطنة الطيبة الآمنة مع أقباط مصر فهم أهل ذمة والنبى صلى الله عليه وسلم أوصى بهم خيرا قبل أن تفتح مصر " كما جاء في حديثه الشريف \*\*\* "

• ومن الناحية الأخرى فإن أقباط مصر رغم أن بعضا منهم مالوا للفرنسيين وتعاطفوا معهم إلا أنه يبدو أن الغالبية كانت أدكى من أن تترك أو نثق في الفرنسيين أو نعتقد في وجودهم الدائم في مصر، فلاشك أنهم أدركوا من الثورات المستمرة ضد الفرنسيين في كل مصر، مدنها وقراها، إن الفرنسيين لن يستمروا طويلا وأنهم لابد مغادرون قريبا ، ولذلك فالأحوط لهم إلا يعادوا

المسلمين القاطنين الدائمين معهم في أرض مصر وربما يتذكر أقباط مصر معاملة المسلمين الطيبة لهم منذ أن فتح عمرو بن العاص مصر فقد رفع الظلم عنهم وأرجع الأسقف بنيامين<sup>(52)</sup> من منفاه في صحراء مصر الغربية معززا مكرما إلى كرسيه في كنيسة الإسكندرية: وكذلك لا يمكن أن تغيب عن ذاكرتهم ، معاملة كثير من الولاة في مصر الإسلامية ، الطيبة للأقباط أمثال مسلمة بن مخلد وعبد العزيز بن مروان كما أنه وطيلة القرون التي أعقبت الفتح الإسلامي لمصر وحتى وصول الفرنسيين لم يكن هنالك اضطهاد جماعي من المسلمين ، الغالبية ، للأقلية القبطية وبدون شك فإن الأزهر بتسامحه وفهمه الوسطي المعتدل للإسلام ساعد على سلامة العلاقة بين المسلمين والأقباط حتى أنه، في ظني، لم تستطع الحملة الفرنسية زعزعة التماسك في العلاقات بين المسلمين والأقباط .

إذن الأزهر الشريف وعلمائه استطاعوا قيادة السفينة إلى بر الأمان ورغم أنهم اختلفوا في أسلوب المواجهة إلا أنهم حافظوا على الأزهر ومصر وكان الشرقاوي ربانا ماهرا رغم لينه في المواجهة ، ولكنه كان لا يخشى في الله لومة لائم بل كان شجاعا غضويا كالأسد إذا شعر بإهانة للإسلام في شخصه أو شخص أحد علماء الأزهر وقد حدث ذلك ، عندما رمى الميدالية التي ألصقها نابليون بنفسه على صدره فجذبها الشرقاوي بعنف من صدره ورماها على الأرض وداس عليها<sup>(53)</sup> برجله مما أغضب نابليون غضبا لم يغضب مثله منذ أن جاء مصر واعتبر ذلك إهانة لفرنسا " العظيمة " ، ولكنه اضطر لكظم غيظه خوفا من الشرقاوي الذي حقا أرعب<sup>(54)</sup> نابليون بغضبه تلك فقد كان جلال العلم ومهابته التي تحلى بها الشيخ الشرقاوي أكبر من أن يتحداها نابليون نفسه، أضف لذلك فقد كان الشرقاوي يثق في نصر الله وأنه لا بد أن يضرب الظالمين بعضهم ببعض

ويخرج مصر آمنة سالمة من بين براثنهم وقد حدث ما كان يأمله ويظنه وبدأت بداية النهاية لتلك الأيام العجاف بقدم "كليير" خلفا لنابليون .  
كليير<sup>(55)</sup> ونهاية الحملة وموقف الأزهر يستمر

أجبرت الظروف الدولية والتطورات الداخلية في فرنسا نابليون على الخروج من مصر سرا ، وذهب إلى فرنسا وترك خليفة له ، وهو الجنرال كليير، وقد كان هذا خلفا سيئا لنابليون فبينما كان نابليون رجلا بسيطا وبشوشا في مقابلة الناس وكان بعيداً عن "الفخخة" والاستكبار وقد حباه الله " بكاريزما " خاصة تجعل القلوب تنجذب إليه إما مهابة واحتراما أو محبة ، وهذا بالنسبة لقومه، وربما كان ذلك سر عظمته التي جعلت له مكانة في التاريخ ولكن "كليير" كان عكس ذلك وقد قال عنه الجبرتي مقارنا بينه وبين نابليون "" .. إن كليير كانت تنقصه ميزة نابليون في كسب قلوب الناس " .<sup>(56)</sup> فبينما كان نابليون يأسر القلوب ببساطته ودعابته ، شرع كليير عندما جاء بعده، في إحاطة نفسه بمظاهر الأبهة والجبروت ، وكان يظن أن الشرقيين عامة لا ينفع معهم إلا الاستعلاء وأنهم دون الأوربيين في كل شيء ، كما أنه ظن أن المصريين خاصة كذلك، وأن الفرنسيين جاءوا ليخرجونهم من الهجمية إلى الحضارة الراقية والتمدن الأوربي بل إن بعض مؤرخي أوربا كانوا مبتهجين جدا لوصول الحملة الفرنسية لمصر فهم يرون أن الحملة الفرنسية أعادت مصر مرة أخرى إلى قواعدها سالمة أي إلي حضارة المتوسط والحضارة الأوربية ، بمعنى أن مصر كانت أصلا تحت اليونانيين ثم الرومان الغربيين ثم الرومان الشرقيين ، فهي أساسا حضارتها أوربية ، ولكن الإسلام هو الذي اعترض سير الحضارة الأوربية في ذلك البلد ،والآن جاءت فرنسا لتلحقها مرة أخرى بحضارة أوربا<sup>(57)</sup> على حد زعمهم.

بمثل هذا المفهوم جاء كليبر خلفا لنابليون وكان مجيئه شؤما علي مصر وشؤما علي الحملة الفرنسية نفسها، فلم يمكث إلا قليلا حتى انفجرت ثورة القاهرة الثانية في مارس 1801م ويبدو أن الذي أثار هذه الثورة بجانب الشعور المضاد للفرنسيين عامة ، وصول فرقة من الجيش العثماني المنهزم بعد معركة (أبوقير) البرية إلي القاهرة فشجعوا على إثارة الشعور العام ضد الفرنسيين فبدأت ثورة القاهرة الثانية وقد كان المصريون من قبل قد ابتهجوا بانكسار نابليون أمام العثمانيين في عكا وأصبح هنالك شعور عام<sup>(58)</sup> ضد النصارى وفرح وقبضة أبادها المسلمون لهزيمة نابليون والفرنسيين ، ولذلك عندما انتصر نابليون علي العثمانيين في معركة (أبوقير) البرية أصابت المصريين خيبة أمل وإحباط شديد وزاد الطين بلة خروج نابليون من مصر وترك الحملة لقيادة "كليبر" المتغطرس، الذي لا يفقه إلا العسكرية الجامدة ولا يتحلى بمرونة نابليون ودبلوماسيته ، فبدأت الثورة في بولاق وكان من زعمائها الشيخ<sup>(59)</sup> السادات والشيخ عمر مكرم وأبدى الشعب المصري بسالة ومقاومة أذهلت الفرنسيين بل قام سكان القاهرة بما لم يقدّم به احد من قبل كما اعترف أحد مهندسي الحملة الفرنسية المدعو<sup>(60)</sup> " مسيوما رتان" فقد ذكر أن سكان القاهرة صنعوا البارود وصنعوا القنابل بل إنهم فعلوا ما لا يمكن تصديقه، وهو أنهم صنعوا المدافع ، كما ذكر كليبر<sup>(61)</sup> في يومياته أن المصريين أنشأوا معامل للبارود ومصانع لتصنيع المدافع وعمل القنابل وعلي كل فلم يكن ذلك غريبا علي الشعب المصري الذي تميز عبر تاريخه بالتكيف مع واقعه حيثما كان<sup>(62)</sup> ذلك الواقع .

لم تجد مقاومة السادات وعمر مكرم ،الجناح المتطرف بين علماء الأزهر، حيث أخذ "كليبر" الثورة بعنف متناه وساعده تحالف أحد أمراء المماليك معه ، فبدأ ببولاق رأس الرمح وفعل بأهلها " ما تشيب له النواصي كما ذكر الجبرتي<sup>(63)</sup>

فصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة واحترقت الأبنية والدور والقصور وفعّلوا ببقيّة أحياء المدينة ما فعلوه في بولاق وأظهر الفرنسيون بربريتهم المخبوءة تحت مظهرهم الحضاري الكاذب وقد شهد شاهد من أهلها وهو المسيو جولان" .. عم الخراب أحياء بكاملها .. كانت رائحة العفونة من الرمم المدفونة تحت الردم وزاد في فظاعة هذا النظر ، أن الجنود مدفوعين بفكرة النهب كانوا ينبشون الجثث من تحت الأنقاض والخرائب فكلمّا ظهرت جثة زاد المظهر هولاً وفضاعة ..(64).

لم يكتف "كليبر" بما فعله في الشعب بل نكل أيضاً بقادته العلماء أمثال الشيخ محمد السادات الذي كان محترماً ومحبوياً من جمهرة الشعب المصري فنكل به وعذبه ولم يحترم علمه ، ولا مشايخ الأزهر في شخصه بل أمر الجنود بضربه وتعذيبه أمام زوجته(65) وأولاده في مظهر انعدمت فيه الإنسانية .

إذن ومرة أخرى يبرز الشيخ الشرقاوي ومن معه من مشايخ الأزهر كبراًقة أمل وإيقاظ في تلك الفتنة الشعواء، فاستجابوا لرغبة كليبر في التفاوض معه لإيقاف القتل وسفك الدماء وقد أبدوا لهم تخوفهم من انتقام الفرنسيين من الشعب المصري فوعدهم كليبر بالأمان ولاشك أن الشرقاوي كان حريصاً علي خروج مصر والأزهر والإسلام سالمين من تلك الكارثة وربما أجاب الله دعاءه وهو الرجل " الخلوتي" (كان شيخاً في الطريقة" الخلوتية" وكان يسلك فيها المريدين ويقوم حلقات الذكر) المتصوف الصالح فقتل كليبر علي يد الطالب الشامي الأزهري سليمان الحلبي (66) الذي كان دافعه الرئيسي في قتل كليبر هو الانتقام لشيخه محمد السادات (67) الذي استذله كليبر والفرنسيون وهكذا ظل دور الأزهر وعلمائه مستمراً سواء كان الجناح المتطرف بقيادة السادات أو الجناح المعتدل بقيادة الشرقاوي .



ظل الشرفاوي يدافع عن الأزهر ومصر بكلياته حتى نهاية الحملة وبعد مقتل كليبر انتقم الفرنسيون لمقتله ومرة أخرى أظهروا البربرية الكامنة في نفوسهم فأعدموا سليمان الحلبي في تل العقارب (حي المنيرة الآن) وأعدموا معه أربعة مشايخ من الأزهر بتهمة التستر ولم يكتفوا بمجرد الإعدام بل أحرقوا يده اليمني قبل إعدامه ثم أخذوا جمجمته وعرضوها في أحد متاحفهم في باريس، وبما أن قاتل كليبر كان من الأزهر فقد صب الفرنسيون جام غضبهم علي الأزهر وعلمائه وطلبته ، فأصبح هذا المعهد الإسلامي العظيم هدفا لحقدهم الدفين علي الإسلام وأصبح عندهم محل شك وريبة ومرة أخرى يبرز الشرفاوي كشخصية منقذة بحكمته ورجاحة عقله فقاد وفدا من العلماء وقابل قائد الحملة الجديد "عبد الله جاك مينو (68)" . وطلب منه الإذن بقتل الجامع الأزهر حتى لا يضار ذلك المعهد العريق ويتعرض الدارسون للموت والهلاك، وكانت مفاجأة أن وافق عبد الله مينو " على طلب الشرفاوي فأغلق الأزهر وسمرت أبوابه ولم يفتح إلا بعد جلاء الفرنسيين الذي لم يطل بعد ذلك ، إذ إن الله ضرب الظالمين بعضهم ببعض فقاد الانجليز حلفا داخليا وخارجيا ضد الفرنسيين وخرج الأخيرون مدحورين من مصر بعد صلح أميان 1801 ، وهكذا ظل الأزهر يلعب دوره المرموق حتى نهاية الحملة ذلك الدور الذي أظهر بلا شك أن الأزهر وعلمائه كانوا هم الوكلاء الطبيعيين عن مصر والشعب المصري بكامله ولولاهم لكان الأمر جد مختلف فقد حمل الأزهر راية العلم وراية النضال معا وقاد السفينة رغم الأمواج العاتية إلى بر الأمان .

#### الخاتمة : الدرس والعبر .

هكذا انتهت " بانوراما" الحملة الفرنسية في مصر وقد رأينا من خلال هذا البحث موقف الأزهر في خضم تلك الملحمة فهل ثمة دروس وعبر ونتائج ؟

لم تكن الحملة الفرنسية هي أول التحام للفرنسيين مع الأرض والشعب في مصر بل سبقتهم حملة لويس التاسع الصليبية والتي هزمها المصريون في قرية فارسكور<sup>(69)</sup> بالقرب من المنصورة ولكن ذلك كان التحاما طرفيا مؤقتا ولم يتعمق الفرنسيون داخل مصر ولكن الحملة الفرنسية (1798- 1801) كانت التحاما مباشرا بقلب مصر أرضا وشعبا ورغم إنها كانت قصيرة جدا في عمر الزمن (ثلاث سنوات فقط) إلا أنها كانت عظيمة الأثر والنتائج ليس في مصر فقط، بل ربما كل الشرق الإسلامي لأن ما يجري في مصر، دائما يكون له صدى واضحا في كل المنطقة حولها وذلك لموقعها الاستراتيجي واتصالها المباشر بكل المنطقة حولها .

كان من سوء حظ الحملة الفرنسية، أنها اصطدمت بمصر وربما كان الفرنسيون يظنون أنهم سوف يغيرون الهوية المصرية تغييرا كاملا بضربهم للموروثات الحضارية للشعب المصري وذلك بضرب الإسلام واللغة العربية، الركيزتين الأهم في حضارة مصر، وتغيير الهوية أمر درج عليه الاستعمار الفرنسي متبعا قاعدته المعرفة ، الاستيعاب "assimilation" وهذه القاعدة قد تكون سهلة في التعامل مع بعض الشعوب الفطيرة التي لا حضارة ولا دين ثابتاً ولا لغة معروفة لها . فلذلك يمكن استيعابهم داخل الهوية الفرنسية ، فعملية الاستيعاب قد تنجح في حالة الشعوب والقبائل الوثنية البدائية في آسيا وإفريقيا مثل جزر المارتنيك وجزر أمريكا الوسطى والجنوبية وأشباه ذلك ولكن من الصعب أن ينجح في بلد مثل مصر .

أكرر أنه من سوء حظ الفرنسيين، أنهم اصطدموا بمصر وشعبها فمصر دولة عريقة في حضارتها واعني هنا الحضارة الإسلامية خاصة ، فنحن أمام شعب تعمقت هويته الإسلامية والعربية قبل الحملة الفرنسية بأحد عشر قرنا من الزمان

،وهي هوية غذتها وأصلتها وأطرتها ديانة الإسلام ولغته العربية منذ أن فتح عمرو بن العاص مصر (21 هـ /642م) وربتها ونمتها مدرسة مصر الإسلامية التي افتتحت في جامع عمرو، أول مسجد جامع يبنى في إفريقيا، ففي حلقاته تتابع العلماء الأجلء بدء من عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ومرورا بالتابعين أمثال الإمام الشافعي والليث بن سعد ثم السيوطي والحافظ بن حجر وأخيرا قبل وأثناء الحملة الفرنسية الشيخ الإمام عبد الله الشرقاوي والرهط الكريم الذين معه من أئمة الأزهر وعلماؤه وقد كان الأزهر منذ إنشائه قلعة علم ونضال تكسر علي صخرته كل من أراد بالإسلام شرا فكان كالأسد الذي يحمي عرينه فعندما جاء الفرنسيون بحضارتهم ومخترعاتهم وأفكارهم تصدى لهم الأزهر فكان حائط الصد الذي أنقذ هوية مصر الإسلامية من كيدهم .

لقد رأينا من خلال هذا المبحث كيف أن مصر والأزهر لم يستكينا للهجمة العسكرية والفكرية والحضارية الفرنسية فلم يكن الأمر بالنسبة لهم أمر دنيا فقط، بل كان أكبر من ذلك إذ كان أمر عقيدة وهوية، فهم يدافعون عن الديار والعقيدة معا والوطن في عرف أهل الأزهر وهم العلماء العارفون بالعقيدة والشريعة، هو ديار الإسلام وبالنسبة لهم في مصر هي أرض مصر المرتبطة بالإسلام فشرعية الإسلام تستصحب الدفاع عن الديار والوطن إذا هاجمها المعتدي وتستوجب الجهاد في سبيل ذلك، وليست المسألة مسألة قومية أو وطنية كما بشرت بها الثورة الفرنسية وكرستها في صيغة علمانية لأصلة لها تذكر بالدين، بل عندهم القومية هي ( وحدة الآمال والآلام والأرض المشتركة واللغة المشتركة الخ .. مما بشر به فلاسفتهم أمثال روسو وفولتير وهوبز وغيرهم في محاولة فجأة لإبعاد الدين عن الهوية فإن كان الأمر مقصوراً على الدنيا فقط ، لاستكان المصريون للفرنسيين لأنهم كانوا في أمور الدنيا أحسن من المماليك قبلهم، فقد أدخلوا الحداثة والتقدم

العلمي في البلاد وحققوا دراسات علمية مهمة في الجغرافيا والتاريخ والإحصاء ودرسوا النيل وفروعه وقدموا بحوثا مهمة أفادت مصر فيما بعد (وهذه الدراسات ضمها الكتاب الضخم الموسوم " وصف مصر " والذي كتبه علماء الحملة الفرنسية وهو مجلدات ضخمة كثيرة طبعت عدة مرات كان آخرها طبعة حديثة طبعتها وزارة الإرشاد في مصر 1979م) بل أكثر من ذلك أحضروا معهم مطابع من أوروبا تطبع بـ 5 لغات<sup>(70)</sup> هي العربية والفرنسية واللاتينية واليونانية والسريانية بل إن نابليون شارك الشعب احتفالاته الدينية وأعلن حبه للدين الإسلامي، وأوقف السلب والنهب والاعتصام الذي كان سائدا أيام المماليك، وبدأ في تنظيم ونظافة الشوارع<sup>(71)</sup> والمسالك بصورة حضارية لم يعرفها المصريون من قبل .

إذن لو كان الأمر هو مجرد إصلاح حال الدنيا، لتبعم المصريون دون كبير عناء ولكن كما تذكر المصادر<sup>(72)</sup> فإن الفرنسيين لم يهدأ لهم بال طيلة السنوات الثلاث التي قضاها في مصر ولم يستقر لهم حكم شامل في مصر ، فما يكادون يخضعون قرية أو مدينة في مصر ويتركونها لإخضاع غيرها حتى تهب التي أخضعوها مرة ثانية، وهكذا فلم يستقر لهم قرار ولا مقام في أرض مصر ، وظلوا فيها كالطريد من حارة لحارة ومن بلد لبلد حتى تركوها أخيرا غير مأسوف عليهم، فمن سوء حظ الفرنسيين أنهم اصطدموا بشعب له عقيدة إسلامية راسخة لا يمكن اختزالها أو سحقها مهما كانت القوة الباطشة الفرنسية ، بل ثبت أن بطش الفرنسيين زاد المصريين تمسكا بعقيدتهم وهويتهم، وقد حباهم الله بقيادة واعية راشدة ورشيدة وهي مؤسسة الأزهر الشريف فقد كان علماء الأزهر وعلى رأسهم الشرقاوي يعرفون كيف يرشدون الأمة في الشدة والرخاء، ويعرفون فقه الضرورة ومواجهة كل حالة حسب مقتضيات الظروف والأحوال إن كان دفاعا وتقية فهم أهل ذلك ، وإن كان نضالا وكفاحا وجهادا فهم خير أهله كذلك ، ديدنهم الإخلاص والنصيحة لله

ولرسوله وللمؤمنين، وبذلك عجزت الحملة الفرنسية من أن تثبت في مصر أو تقتلع هوية مصر من الجذور كما فعلت فرنسا في بلاد أخرى.

لكن مع هذا فقد كان للحملة الفرنسية آثار ونتائج بعيدة دون شك بعضها إيجابي وبعضها سالب أما الإيجابي فإن مصر قد فتحت على مصاريعها للتقدم الأوربي الحديث المعتمد على العلم الأوربي الحديث ، والعلم الأوربي الحديث للأسف اعتمد على التقدم العلمي الإسلامي الذي دخل أوربا قبيل النهضة في شكل علم الرياضيات والفلك والأرقام العربية بل والطريقة العلمية الحديثة ، فاستفادت منها أوربا أيما فائدة وغزت الشرق بعد ذلك بعد أن تقدمت في العلوم المادية ، بينما الشرق لازال يحبو في القرون الوسطى في هذا المضمار ، ولعل نابليون أحس بهذا الفارق فأراد أن يبهر المصريين بالتقدم العلمي الفرنسي ربما ليظهر لهم أن البون شاسع بين مصر وفرنسا وأن قوته لا تقهر ومن الأفضل للمصريين إتباع الفرنسيين حتى ينالوا تقدمهم العلمي ويقطفوا ثمرات العلم الحديث، فشجع المصريين علي أن يرسلوا أبناءهم لفرنسا ليتعلموا في معاهدها كما أن علماء الحملة الفرنسية قاموا بعدد كبير من التجارب العلمية في الكيمياء والفيزياء وعرضوها في بعض المعاهد والمسارح العامة مما بهر<sup>(73)</sup> عقول المصريين الذين شاهدوا أشياء لم يروها قبل ذلك مما أثرت في ضعاف العقول حتى ظنوا أن فرنسا لن تهزم طالما أنها قادرة على فعل مثل هذه العجائب " الخارقة " ولكن الراسخون في العلم من علماء الأزهر وغيرهم يعرفون أن قوة الله فوق فرنسا وعلما وأنها مهما عملت فلن يتبعوها ويتركوا شرع الله.

إذن الحملة الفرنسية فتحت مصر للتأثيرات العلمية الحديثة ودخول التطور والحداثة لمصر ، والتي بدأت حقيقة بالحملة الفرنسية التي أدخلت آلة الطباعة الحديثة التي ربما كانت أعظم اختراع في مجال الفكر والعلم حيث أصبح في

الإمكان نقل الأفكار والعلوم والبحوث في سهولة ويسر من مكان لآخر لأول مرة في مصر وبالطبع فإن اختراع الطباعة لا يقارن إلا باختراع الآلة التي تتحرك بالوقود والتي اخترعها الإنجليز بعد الثورة الصناعية التي بدأت عندهم ، فبدأ التقدم في ميدان المواصلات والزراعة والصناعة ثم أدى إلى القوة العسكرية المعتمدة على الأسلحة المتطورة النارية ، التي مكنت أوروبا الغربية فيما بعد من استعمار العالم الثالث المستضعف ، وعلى كل فإن التقدم في شتى مرافق الحياة يعتبر إيجابياً دخل مع الحملة الفرنسية وتطور فيما بعد فكانت مصر أول أقطار الشرق الإسلامي التي استفادت من هذا التقدم مما مكنها من التقدم السريع في شتى المجالات الصناعية والاقتصادية والعسكرية .

كذلك فإن من الإيجابيات الواضحة أن الحملة الفرنسية فتحت أذهان المصريين لعراقتهم وتاريخهم المجيد وأثار وجود هذه الحملة الغربية اليد واللسان والمعتقد ، عوامل المقاومة والجهاد، وعرف المصريون عن طريقها قوتهم وشعروا بذاتيتهم وزادوا ثقة في أنفسهم خاصة عندما استطاعوا ان يبتكروا ويخترعوا آلات الحرب لمقاومة الفرنسيين في الثورة الثانية فأصبح ذلك تراثاً مجيداً لهم في مستقبل أيامهم .

أيضاً من الإيجابيات الواضحة ظهور الأزهر بدوره النضالي الواضح، فقد استقر في خلد الشعب المصري أن الأزهر وعلماءه هم الوكلاء الطبيعيون للشعب المصري والمعبرون عن إراداته والملاذ الذي يلتجئ إليه الناس بعد الله في الشدائد فأصبح علماء الأزهر رغم غياب السلطة الزمنية عنهم ، هم حماة الدين والوطن .

أيضاً من الإيجابيات أن بعض الفرنسيين اعتنقوا الإسلام بعد أن تأثروا بعظمة هذا الدين وموروثه الأخلاقي والجهادي المتفرد، فقد اعتنق<sup>(74)</sup> جاك مينو الإسلام من أول أيام الحملة وأسمى نفسه عبد الله كما اعتنق الكولونيل "سيف"

الإسلام وساعد محمد علي فيما بعد في تدريب جيشه الحديث وأصبح يعرف باسم سليمان الفرنسي (75).

لكن رغم كل هذه الإيجابيات فقد كانت هنالك سلبيات خطيرة جاءت مع الحملة إذ مع الحملة بدأ التغلغل الحقيقي لتصورات الغرب الأوربي في الأخلاق والأفكار والممارسات ، ففي مجال الفكر بدأت أفكار القومية والوجودية وفيما بعد الاشتراكية وهذا الكم الخبيث من تصورات الغرب غزاه أفكار المتقنين المصريين خاصة ، فصرف أذهانهم إلى ثقافة الغرب ، متأثرين بتقدمه العلمي المادي ، وبدأوا يبعدون عن التصور الإسلامي في الحكم والفكر وحتى الأخلاق والأمثلة كثيرة والشخصيات التي تبعت أفكار الغرب لا تكاد تحصر ، فعلى سبيل المثال : نجد سلامة موسى وطه حسين وقاسم أمين وهدى شعراوي وغيرهم ورغم أن هؤلاء ظهوروا أخيرا ولكن بذرة أفكارهم بدأت مع الحملة الفرنسية .

أما من ناحية الأخلاق والممارسات ، فحدث ولا حرج، فقد ظهر سفور المرأة وحنانات الخمر المصدق لها رسميا وتقليد الفتيات المصريات مسلمات أو غيرهن لرصيفاتهنّ الأوربيات في كل شيء ، وحتى "المايو البكيني" ظهر على سواحل وبلاجات البحر، ثم بدأت النوادي الليلية ومعها طلاب المتعة الحرام تغزو مدن مصر خاصة القاهرة والإسكندرية وعلى كل من الصعب حصر هذه الممارسات ، إنما هذه إشارة عابرة لما بدأ يحدث بعد أن وطئت إقدام الفرنسيين مصر سواء كان ذلك بتخطيط ماكر يقف وراءه اليهود والأوربيون أو بتأثير عفوي أو بالاثنين معا، فقد كانت المحصلة النهائية اهتزاز القيم الإسلامية الراسخة في المجتمع المصري كما لم تهتز من قبل ، وهنا أيضا يبرز الأزهر بدوره الرائد في حراسة القيم الإسلامية في الفكر والأخلاق رغم معاول الهدم والتخريب التي واجهها منذ قدوم الفرنسيين، ولكنه كان ثابتا كالطود رغم كل الأعاصير .

أخيرا اختتم هذا البحث بالتذكير بأن الأزهر لازال يمكنه لعب الدور المنوط به في وحدة الأمة وقيادتها الرشيدة حتى تحافظ على الوطن والدين ، إذ إن مصر هذه الأيام وخاصة بعد ثورة 25 يناير 2011م ، هي في أشد الحاجة لدور الأزهر التصالحي والوسطي المرن الذي يقوم على النصيحة والإرشاد القويم من غير إفراط ولا تفريط فهي المؤسسة الوحيدة في مصر القادرة فعلا على رتق النسيج الاجتماعي للشعب المصري مسلما أو غير مسلم وهو مؤهل لذلك عبر تاريخه الطويل وما أظن أن الشعب المصري مرت عليه هجمة شرسة كذلك التي قامت بها الحملة الفرنسية فإن كان الأزهر قد استطاع الخروج بمصر من تلك الأزمة والفتنة فإنه على التعامل مع غيرها يكون أقدر، فقد عجمت الحملة الفرنسية عوده وزادته صلابة وقوة .



**الهوامش:**

- 1- الشيخ صالح الجعفري : منبر الأزهر ، القاهرة ، 1993م - ص 18
  - 2- الشيخ طه الولي : المسجد في الإسلام ، بيروت ، طبعة أولى 1988م ، ص 474.
  - 3- محمد كمال السيد : الأزهر جامع وجامعة ، القاهرة 1986م ، ص 17.
  - 4- نفس المصدر والصفحة .
  - 5- الموسوعة العربية العالمية : الرياض ، طبعة ثانية 1999م ، صفحات 588 - 592.
  - 6- هو عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم الدمشقي لقب بسلطان العلماء وبائع الملوك (577- 660هـ - 1181 - 1162م) شافعي المذهب كان علما من الأعلام شجاعا في الحق أمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر كان خطيبا في الجامع الأموي وكانت تخشاه السلاطين والأمراء اعتقله والي الشام ونفاه لمصر فقابله ملكها الملك الصالح وعلماء مصر بالترحاب وولاه السلطان الخطبة في جامع عمرو بن العاص ورئاسة القضاء وكانت له صولات وجولات ومواقف شجاعة يصدع بها بالحق ضد سلاطين المماليك. (انظر: الموسوعة العالمية ، مصدر سابق، صفحات)
  - 7- عبدالله سلامة نصر : الأزهر الشريف في ضوء سير أعلامه الأجلاء رؤية فنية تاريخية ، القاهرة 2009 / ص 5.
- \*\*\* النساء الآية 83
- \*\*\* النساء الآية 59
- 8- الشيخ صالح : منبر الأزهر ، مصدر سابق ، ص 17
  - 9- أحمد إبراهيم البرماوي : الميثاق والعهد في شرح من تكلم في المهدي ، القاهرة 2011، ص 6.
  - 10- الشيخ عبدالله الشرفاوي : شرح الحكم العطائية ، القاهرة 2010م ، ص 13.
  - 11- تحرير حسن الناطق وتاج السر بشير : التنصير والتغلغل الاستعماري في إفريقيا ، الخرطوم 1998م، ص 139.
  - 12- ولد نابليون بونابرت في أجاكسيو (جزيرة كورسيكا) 1769 ، ينتمي إلى أسرة نبيلة من مقاطعة تسكني في إيطاليا وقد خدمته الظروف ودخل الكلية الحربية في باريس وتخرج ضابطا في المدفعية وقد بدأ نجمه يسطع عندما أوكلت إليه حكومة الإدارة مهمة ضبط الأمن وإيقاف إرهاب الجماهير الفرنسية المتشعبة بروح الثورة والإرهاب فنجح نجاحا باهرا

عندما سلب مدافعه علي سقف قصر (النوليري) وضرب الجماهير برصاص المدافع في (المليان) ومن يومها توقفت الجماهير عن إرهابها وعرفت أنها حيال شخصية قاهرة جبارة فلم تخرج من يومها ثم تدرج في سلم الشهرة فقاد الحملة الفرنسية لشمال إيطاليا حيث هزم النمسا المنافس الأول لفرنسا داخل القارة الأوروبية ثم أوكلت إليه حكومة الإدارة مهمة قيادة الحملة الفرنسية لمصر سنة 1798م فاحتل مصر، قاطعا خط الرجعة لانجلترا بل خط الحياة بينها وبين إمبراطوريتها في آسيا وأعالي البحار ، ثم رجع من مصر وأحدث أول انقلاب عسكري في التاريخ الحديث وتدرج في المناصب حتى أصبح إمبراطورا 1804، ومن يومها بدأت الحروب النابليونية في أوروبا واستطاع نابليون في شيء أشبه بالإعجاز العسكري أن يخضع أوروبا من بحر الشمال غربا وحتى جبال الأبالش شرقا كما أنه أخضع الكنيسة لقانون الدولة وأصبح رجال الدين أشبه بالموظفين لدى الدولة عندما أصدر القانون المدني Napoleon Code ولكن أوروبا اجتمعت عليه أخيرا وهزمته في المعركة النهائية الفاصلة في سهل " واترلو " في بلجيكا سنة 1815م ثم نفي أخيرا إلى جزيرة سانت هيلان St.Helena في قاع المحيط الأطلسي جنوب أمريكا الجنوبية وبقي بها حتى وفاته سنة 1821م وقد نقلت رفاته أخيرا إلى فرنسا في عهد حفيده نابليون الثالث 1870م ، كان نابليون شخصية متفردة فريدة وقد حباه الله بشخصية أسرة جذابة وكانما ولد ليحكم (عدة مصادر وربما أهمها {Encyclopedia 12 U.S.A 1974 pp.831 -873

#### Britanica vol

- 13- شعبة التاريخ قسم المناهج : تاريخ العالم العربي الحديث ، الخرطوم ، طبعة سابعة 1997م ، ص 71
- 14- العلمانية تعني الفصل المطلق بين السياسة والدين وأول من بدأها هو المفكر الإيطالي السياسي نيكو لوميكافيلي صاحب قاعدة " الغاية تبرر الوسيلة" ، وقد تأثر بها فلاسفة أوروبيون متأخرون وهي تعطي سلطاناً للعلم في كل شيء وتعتبر فلسفة مناهضة للأديان (الموسوعة العالمية ، الرياض طبعة ثانية 9 ص 415).
- 15- Encycoped .Br.op.cit pp.831-873
- 16- هـ / فشر : تاريخ أوروبا الحديث ، ترجمة محمد نوفل ومصطفى زيادة ، مصر 1972م ، ص 47.

- 17- الدافع التنصيري الواضح يظهر في استعمار الجزائر في خطاب وزير الحربية الفرنسية لملك فرنسا وذلك عند احتلال الجزائر يقول فيه "... لقد أرادت العناية الإلهية أن تتأثر حمية جلالكم للقضاء على ألد أعداء النصرانية ، ولعله لم يكن من باب المصادفة أن يدعي "لويس النقي" لكي ينتقم للدين وللإنسانية ، وربما يسعدنا الحظ لنشر المدنية بين السكان الأصليين وندخلهم في النصرانية ( انظر د. إسماعيل أحمد باغي ومحمود شاكِر : تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر (قارة إفريقيا ج 2 ، ص 125) .
- 18- الشرقاوي ، هو الإمام الشيخ عبدالله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي الشافعي الأزهري ولد بقرية الطويلة بالقرب من بلبس بمديرية الشرقية 115هـ (1737) حفظ القرآن في طفولته ثم ذهب للأزهر وتلقى الدروس على أشهر علمائه حتى وصل إلي درجة الفتيا في الفقه الشافعي، ومال بفطرته الطبيعية للتصوف وانتظم في سلك الطريقة الخلوتية وكان شيخا يسلك المريدين الطريقة ، تولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ العروسي 1218هـ- (1793) وظل شيخا للأزهر حتى وفاته فعاصر آخر عهد المماليك والحملة الفرنسية بسنواتها الثلاث ثم عهد محمد علي، كان رئيسا للديوان الذي أسسه نابليون بمراحله الثلاث كان له دوره الواضح في مقاومة طغيان المماليك حتي قاد ضدهم عصيان مدني أضطر مراد الطاغية للتراجع ، كما كانت له مواقفه التي اتسمت بالحكمة والشجاعة معا في عهد الحملة الفرنسية وقد احترمه نابليون وتأثر بهيبته وبعجل العلم الذي كان ظاهرا على وجهه الوقور وقد استغل الشرقاوي موقفه للشفاعة عند نابليون في كثير من العلماء المظلومين كما أنه دافع عن الأزهر ومصر بحكمة وكياسة حيث كان الرجل المناسب في المكان المناسب في تلك الظروف الحرجة الاستثنائية التي فرضتها الحملة الفرنسية علي مصر (انظر : محمد كمال السيد : الأزهر جامع وجامعة ، مصدر سابق ، ص 156 - كذلك عبدالله سلامة : الأزهر الشريف في ضوء سيرة أعلامه ، مصدر سابق ، ص 75).
- 19- Underwood, Elizabeth. : From the Renaissance to the United Nations , Edieborough & London -1966- pp.190-192
- 20- عبدالرحمن الجبرتي المختار من تاريخه ، اختيار محمد منديل الثعلبي : القاهرة 1958، ص 243.
- 21- نفس المصدر ، ص 246.
- 22- محمد رجب البيومي : الأزهر بين السياسة وحرية الفكر : القاهرة 1993، ص 46

- 23- الحبرتي : مصدر سابق ، ص 246
- 24- البيومي : مصدر سابق ، ص 46
- 25- الجبرتي : مصدر سابق ، ص 273
- 26- البيومي: مصدر سابق ، ص 46
- 27- الموسوعة العربية العالمية ، مصدر سابق ، ص 591
- 28- نفس المصدر والصفحة
- 29- البيومي : صفحات 48-49
- 30- نفس المصدر والصفحات.
- 31- الجبرتي : مصدر سابق ، صفحات 274 - 275.
- 32- عمر مكرم 1168 - 1237 / 1755 - 1822هـ) زعيم مصري أزهري تولى نقابة الأشراف في مصر، قاد القاهرة بأجمعها للجهاد ضد الفرنسيين عندما وصل نابليون في حملته لها ورفع العلم المسمى "بالبيرق النبوي" وحوله آلاف من سكان القاهرة ولكن السلاح خذلهم فخرج الشيخ عمر من القاهرة إلى العريش ثم إلي يافا وعندما احتلها نابليون أكرم المصريين وعفا عنهم فرجع الشيخ إلى القاهرة ولكن بعد ثورة القاهرة الثانية ضد الفرنسيين نغم عليه الفرنسيون فنهبوا بيته فخرج من القاهرة وما عاد إليها إلا بعد مقتل كليبر وعودة العثمانيين فأعيدت إليه نقابة الأشراف ، ثم أبعد محمد علي باشا إلى دمياط ثم طنطا حيث توفي بها (الموسوعة العالمية ، ج 9 ، مصدر سابق ، ص 641)..
- 33- الجبرتي : مصدر سابق ، ص 295.
- 34- مكي شبكية : تاريخ شعوب وادي النيل (مصر والسودان ) في القرن التاسع عشر الميلادي ، بيروت طبعة ثانية 1980 - ص 11
- 35- نفس المصدر والصفحة .
- 36- الجبرتي : مصدر سابق ، ص 295
- 37- البيومي : مصدر سابق ، ص 52
- 38- مكي شبكية : مصدر سابق ، ص 115
- 39- شعبة التاريخ : قسم المناهج مصدر سابق ، ص 73.
- 40- هذا الكتاب بعنوان ( تحفة الناظرين في ذكر من تولى حكم مصر من السلاطين) ألفه الشرقاوي وجمع فيه خلاصة فكره عن الفرنسيين والحملة الفرنسية وبين فيه كيفية الخلاص

- من تلك الورطة التي وقعت فيها مصر بقدم الفرنسيين (انظر : محمد كمال السيد ، الأزهر جامعة وجامعة ، مصدر سابق ، ص 161).
- 41 نفس المصدر والصفحة .
- 42 نفس المصدر والصفحة .
- 43 الجبرتي : مصدر سابق ، ص 246.
- 44 عبدالله سلامة : مصدر سابق ، ص 75
- 45 نفس المصدر والصفحة
- \*\*\* نص الحديث " العلماء ورثة الأنبياء : رواه البخاري-انظر ( الشيخ صالح الجعفري : فتح وفيض وفضل من الله في شرح كلمة لا إله إلا الله ، القاهرة 1991 - ص 18
- 46 عبدالله سلامة : مصدر سابق ، ص 75
- 47 نفس المصدر والصفحة
- 48 نفس المصدر والصفحة
- 49 نفس المصدر - ص 76
- 50 عبدالله الشرقاوي : الحكم العطائية ، القاهرة ، 2010 ، ص 14.
- 51 نفس المصدر والصفحة .
- \*\*\* تخريج الحديث ، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ستفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لهم ذمة ورحمة " ( ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جزء 1 " نسخة مصورة من طبعة دار الكتب " القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد بدون تاريخ ، ص 29 ) .
- 52 حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي بيروت 1996م ، طبعة 14 - صفحات 192-196.
- 53 عبدالله سلامة : مصدر سابق ، ص 76.
- 54 أشرت إلى موقف عظيم آخر للشرقاوي ضد طغاة المماليك وكيف أنه قاد ونفذ ما يشبه العصيان المدني " في الوقت الحاضر " حيث أجبر حكام المماليك على تلبية رغبة علماء الأزهر ورغبة الشعب في رفع المكوس بعد أن قام بإغلاق الأزهر وحث التجار وأهل البلد بإغلاق محالهم وحوانيتهم فخاف حكام المماليك ونزلوا عند رغبة الشرقاوي - ( انظر حاشية ، 18 أعلاه ) .

- 55- نبذة عن كليبر : ولد في ستراسبورج عاصمة الألزاس 1783م وظهر نبوغه العسكري في حروب الثورة الفرنسية ، وكان شجاعا ولذلك كانت له مكانة في نفوس الجند وكان صديقا ل نابليون ، ولكنه يختلف عنه في صفاته فبينما كان نابليون بسيطا كان كليبر متعظرا متجبرا وقد خلف نابليون في مصر وقامت في عهده ثورة القاهرة الثانية ( مارس 1800) وقد عامل الشيخ الجليل محمد السادات معاملة قاسية مما دفع أحد تلاميذ ، ومريدي الشيخ السادات ، وهو سليمان الحلبي لقتله في حديقة منزله بشارع الألفي في 14/6/1800) انظر محمد كمال السيد : الأزهر جامع وجامعة ، مصدر سابق ص 149 كلك عبدالرحمن الراجعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ج 2/ القاهرة ، طبعة ثانية 1998 ، ص 90).
- 56- عبدالرحمن الراجعي : نفس المصدر ، ص 85
- 57- أ.هـ . فشر : ترجمة محمد نوفل ، مصدر سابق ، ص 53.
- 58- مكى شبكية ، مصدر سابق ، ص 112
- 59- محمد كمال السيد ، الأزهر . مصدر سابق ، ص 143
- 60- نفس المصدر ، ص 144.
- 61- نفس المصدر والصفحة
- 62- ظهرت عبقرية الشعب المصري في التاريخ المعاصر حدا أثناء حرب رمضان 1390(أكتوبر 1973) حين فعل جنود مصر العجائب فقد استطاع عبدالعاطي "صائد الدبابات " أن يدمر لوحده 23 دبابة عند مدخل مدينة السويس كما استطاع علي (R.B.G) أن يدمر 6 دبابات أيضا عند مدخل السويس كما أن المصريين اخترعوا فكرة ضخ الماء من الخراطيم الضخمة التي أزاحت الطبقة الترابية السميقة فوق خط بارليف مما مكنهم من اجتياز أضخم مانع عرفته الحروب الحديثة .
- 63- محمد كمال السيد : مصدر سابق ، ص 146
- 64- رجب البيومي : مصدر سابق ، ص 54.
- 65- نفس المصدر ، ص 61
- 66- سليمان محمد الحلبي، مجاهد إسلامي سوري كان يدرس بالأزهر لمدة ثلاث سنوات وقد حج مرتين بعد أن رجع لبلاده سوريا ويبدو أنه كان محبا ومريدا للشيخ محمد السادات فعندما علم بإذلال كليبر له وجلده له بالعصا أمام زوجته وأولاده ، صمم على قتله فجاء

للقاهرة ومكث واحداً وثلاثين يوماً يتربص بكليبر حتى وجد الفرصة فطعنه بخنجر في حديقة منزله وقضى عليه ، حكم عليه بالإعدام وأعدم في مكان يقال له تل العقارب (حي المنيرة الآن) بعد أن أحرقت يده اليميني ، احتفظ بجمجمته وهيكله العظمي في غرفة تشريح في باريس .(انظر : محمد كمال السيد : الأزهر جامع وجامعة ، مصدر سابق ، ص 49 ، كذلك الموسوعة العالمية .. الخ).

- 67 محمد كمال السيد : مصدر سابق ، ص 149
- 68 عبدالله "جاك مينو" كان ، أحد ضباط وجنرالات الحملة الفرنسية وكان اسمه جاك مينو ولكنه أسلم وأعلن إسلامه مع بداية دخول الحملة الفرنسية لمصر وغير اسمه لعبدالله وأصبح يعرف باسم "عبدالله مينو " وقد تزوج من سيده مصرية من مدينة رشيد وأنجب منها ولدا أسماه سليمان مراد وربما تكون قصته هي التي صاغها الكاتب الأديب المعروف علي الجارم في قصته الرائعة الصيت ( عادة رشيد) (انظر: محمد كمال السيد : الأزهر جامع :مصدر سابق ، ص 150).
- 69 قاد لويس التاسع المعروف باسم "القديس لويس" الحملة الصليبية السابعة وبدأ بمصر ظناً منه بأن السيطرة على مصر تسهل السيطرة على بيت المقدس والأراضي المقدسة ولكن المصريين بزعامة المماليك في زمن شجرة الدر ، تصدوا له وهزموه وأسروه في معركة المنصورة ، 652هـ وقد أطلق سراحه لقاء فدية كبيرة ولكنه عاد مرة أخرى وقاد الحملة "الثامنة" 669هـ ونزل أولاً في تونس ولكنه هلك بعد ذلك بعد تفشي الطاعون في جيشه ( انظر الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق ، ص 291).
- 70 محمد علي السيد : الأزهر ، مصدر سابق ، ص 133
- 71 محمد علي السيد ، مصدر سابق، ص 51
- 72 محمد علي السيد : مصدر سابق ، ص 134.
- 73 الجبرتي : مصدر سابق ، ص 285
- 74 انظر حاشية رقم 68
- 75 شعبة التاريخ : تاريخ العالم العربي ، مصدر سابق ص 80